بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

أمة الرشاد والمودّة

الأستاذ الدكتور بوعبد الله غلام الله

عمّان - المملكة الأردنيّة الهاشميّة

أمّة الرشاد والمودّة

الأستاذ الدكتور بوعبد الله غلام الله

تمهيد

يجتاز عالمنا الإسلامي اليوم بحق مرحلة صعبة من تاريخه، هي من أعسر حقب تاريخه على الإطلاق؛ فالأمة المسلمة وقعت في حالة من السبات العميق بعد سقوط بغداد بالتقويم المشرقي، أو قل بعد سقوط دولة الموحدين بالتقدير المغاربي[1] .

وقد كان تاريخها المجيد من قبل حافلاً بإسهاماتها الحضارية، وقوتها العادلة، وإنارتها العلمية الهادفة، فملأت أرجاء الدنيا ذكراً، ولهجت ألسنة الناس بتعداد نعمها الظاهرة والباطنة، وحمد أياديها البيضاء على الحضارة الإنسانية .

لكن خلَف ذلك العصرَ عصرٌ أصبحت فيه الأمّة المسلمة تتسم بالرؤية الحدية للأمور، وبالتبطّل عن العمل التاريخي، وبالركون إلى الدعة والماضي، وبالمطالبة بالحقوق وترك أداء الواجبات.

وها هي الأمّة اليوم تحاول أن تصحوَ بعد تلك الغفوة المديدة، لكي تلتحق بمسيرة العصر، فتسهم فيها كما كانت في سائر مراحل وجودها، غير أنها صُدّت بهجمة شرسة، وبغارة عدائية تستهدف سائر أوضاعها القائمة وفي طليعتها عقائدها الراسخة، وإيمانها الركين، وتشكّك في سلامة منطقها وقيمها الإنسانية، وتسيء إلى روحها وعقلها، مستفرغة الجهد في النيل من مقدساتها والتطاول على أسس عقيدتها .

[1] مصطلح "ما بعد الموحدين" مفهوم صاغه ابن نبي للدلالة على شخصية الإنسان المسلم منذ عهد ما بعد دولة الموحدين في المغرب العربي إلى اليوم، وهي شخصية تتسم بالرؤية الحدية للأمور، والتبطل عن العمل التاريخي، والركون إلى الدعة والماضي، والمطالبة بالحقوق وترك أداء الواجبات.

وتعدّدت وجوه الدفاع عن الإسلام حيال هذه الهجمات الشرسة التي تصدر عن العالم الغربي بوتيرة ومنهجية توحي أنّ مصدرها إنما هو ذات المركز الذي صدر منه قرار الحرب الصليبية، وقرار الاستعمار، في ذات الحين الذي توحي فيه أن مصدر كل ذلك إنما هو جهل الغرب بحقيقة الإسلام.

لكنّها على الأقلّ أكّدت للأمة إيمانها الذي لا يتزعزع، ومحبتها الخالصة الصادقة لصاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وربطتها ثانية بقرآنها الداعي إلى التسامح والمحبة بمضامينها الواسعة بعد أن اتّهموه زورا وعدوانا بأنه المحرك للتطرف والدافع للإرهاب.

ونحن من منطلق إيماننا العميق بواجب النخبة في ترشيد الأفكار وتصحيح المواقف، نعرض بالدراسة التحليلية لظاهرة الفعل العدواني وردّ الفعل الإسلامي، وتفاعل كلّ ذلك في عالم متغيّر تتلاطم فيه أمواج الصراع الفكري؛ مع إسداء التوجيه المنهجي والتقويم العلمي لحركات الدفاع عن الأمّة.

أولا: مظاهر العدوان على الأمّة المسلمة:

تعيش الأمّة المسلمة اليوم عدواناً صارخاً على كيانها السياسي، وإذا كان أبرز مثال على ذلك هو حالة الأسر الذي تتعرض له فلسطين السليبة بمباركة القوى الكبرى. فإن شأن العراق الجريح لا يقل دلالة، وحالة التيه التي يعيشها الصومال الممزّق، وحالة التململ التي يعيشها السودان الشقيق، دون أن ننسى الفوضى العارمة التي وصلت إليها أفغانستان الأبيّة؛ كلها أمارات دالّة على أنّ العدوان يريد مصادرة إرادة الأمّة المسلمة، وسلب عزتها بعناوين متعدّدة، وبدعاوى لا تقوم على أساس من الموضوعية والمنطق، سوى منطق الكِبر والطغيان.

ويشمل العدوان على الأمّة المسلمة العدوان الاقتصادي، فقد فرضت التبعية الاقتصادية علينا لمّا قرّر الغرب أن تكون أمّتنا سوقاً لاستهلاك منتوجاته، وأن تحاصر فيها مبادرات الإنتاج

والتصنيع. فأصبح محكوماً على الأمة المسلمة أن تبيع ثرواتها الطبيعية بأبخس الأثمان لتشتريها بعد ذلك مصنّعة بأبهظها.

ولم تسلم ثقافة الأمّة من عدوانهم، فهجرة الأدمغة استنزفت طاقاتنا الفكرية؛ وشحّت علينا جامعاتهم بالعلوم الأساسية في حين كانت أمّة الإسلام تقاسمها البشرية كلّها أيام عزّها بقرطبة الأندلس؛ ووصل الأمر ببعض جامعات الغرب إلى رفض تسجيل أبنائنا في تخصصات علمية حسّاسة. وحتى تلك الآلات المتطورة التي قد يستوردها هذا المخبر من مخابرنا العلمية أو ذاك، فإنهم يخفون كيفية صنعها ولا يبدونها لنا إلا بعد أن يكتشفوا جيلاً أحدث منها، يبزّ ما سبقه من اكتشاف.

وشنّت علينا حملات التنصير، وسلّطت على أبنائنا باستغلال وسائل الإعلام الثقيلة، وباستغلال حاجات الناس، وحداثة سنّ تلامذة المدارس، ووضع بعض هؤلاء المنصّرين أنفسهم في خدمة الشرخ الاجتماعي، والعصيان المدني، وتفكيك أواصر الترابط الوطني أكثر ممّا كانوا دعاة إلى دين عيسى عليه السلام.

كل ذلك واكب حملات التشكيك في ثوابت الأمّة المسلمة، بدءاً بإصدار "الفرقان" الذي أرادوه بديلاً للقرآن الكريم، ومروراً بتشجيع التهكّم بالإسلام باسم حرية الفكر وحرية التعبير، كصنيعهم مع مؤلف [آيات شيطانية]، والكاريكاتورات الدانماركية وما تلاها من محاكاة في سائر بلاد الغرب؛ دون أن ننسى التصريحات التحريضية ضد الإسلام التي تصدر من أكابر رجالات الغرب كمقولة إن "الإسلام هو العدو البديل عن الشيوعية المتهاوية"، ومقولة بابا الفاتيكان التي لمز فيها الإسلام لمزًا جارحاً لم تهدأ النفوس منه بعد.

ولعلّ أخطر ما يقال عن الإسلام اليوم هو أن القرآن الكريم هو مصدر العمليات الإرهابية التي أصبحت تستدعي التجنيد العالمي الموسّع ضد الأفراد والجماعات، بل وضدّ الدول التي أضحت تنتهك سيادتها جهاراً للفتك بقوى الإرهاب التي يُقضى بوجودها على أراضيها.

ثانيا: أسباب العدوان على الأمّة المسلمة:

مهما قيل عن أسباب العدوان على أمّة الإسلام فإنّ الأمر ما زال يحتاج إلى مزيد من التحليل والتعميق، لأنه بمعرفة أسباب العدوان الحقيقية فإنّنا سنتعرّف على أنجع مناهج الذود عن حياض أمّتنا .

ولن نبطل في هذا المقام أيا من الطروحات التي حاولت تفسير الظاهرة حتى تلك التي تقدّر أن سبب العدوان هو العداء الطبيعي بين الغرب والإسلام، وهو الطرح الذي يستند فيه أنصاره إلى تفسير خاص لقول الله تعالى: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ (البقرة:١٢٠) . كما لن نبطل طرح أولئك الذين يرون أن سبب ضعفنا وكوننا فريسة لهجومات الغرب هو ارتباطنا بالتراث، وإصرارنا على التمسّك بالقرآن في حين تقدّم الغرب بغير هذا القرآن .

ذلك لتقديرنا أنّ أيّ جهد يقدّم لتحليل الظاهرة، واقتراح المخرج من النفق المظلم، هو جهد مبارك ميمون، لا يمكنه إلا أن يثري التفكير المشترك بما يستدعي من سجال فكري دافع إلى تلاقح الأفكار، وفاتح لآفاق جديدة نحو الحلّ الحضاري لمشكلة العدوان هذه .

ومن جهتي فإنني أقدّر أن الذي جعل الغرب يتجاسر على الإسلام والمسلمين، ويبالغ في العدوان والاستبداد السياسي والاقتصادي فضلاً عن العدوان الثقافي، إنما هو سببان:

١- انتشار الإسلام في عالم الغرب وعودة الأمّة إليه:

أحد هذين السببين اللذين استدعيا في تقديري كل هذه الهجمات على الأمّة المسلمة، وعلى مقدساتها إنما هو انتشار الإسلام في الغرب وعودة الأمّة إليه .

ويمكن تفسير عودة الأمّة إلى إسلامها ، واجتماعها على قرآنها بإفلاس برامج الخروج من الأزمة بعد مرحلة الاستعمار، فكل البرامج المنتجة في الغرب بما في ذلك الديمقراطية بهت بريقها بعد أن تلطّخت بتجاوزات جسيمة على حساب كرامة الشعوب المسلمة .

فالحريات الأساسية التي اعتمدها الغرب لحضارته، وأسّس لها أصولاً حديثة ومبادئ معاصرة ثم عمل على تصديرها إلى شعوب الأمة المسلمة التي استهوتها مبادئها، وبهرها بريق صولجانها لم يحترمها هذا الغرب عندما منع اللباس الإسلامي في مدارسه بدعوى منع التميّز النحلي، مناقضاً بذلك مبادئ الحرية التي أسّس هو ذاته لها والتي تضمن هذا التمايز، وتدافع عنه، هذه الحرية التي باسمها يسعى الغرب إلى خلق التمايز والصراع النحلي في المجتمع المسلم، حيث يعمل على رعاية وحماية حركات التبشير في أوطاننا .

ولا حتى المساواة التي أشهروها شعارا لحضارتهم حتى بتنا ننازعهم إيّاها، ورحنا نؤسس لها من قرآننا وسنة نبيّنا، بقي لها ذلك الوقع في أنفسنا، وذلك التأثير في سلوكاتنا ومشاريع حياتنا بعد أن أفلس هذا المبدأ أيضاً وأفرغه ذاتُ الغرب من محتواه وهو يعامل العالَم بميزانين مختلفين، ففلسطين دائماً ظالمة وإن دافعت عن شرفها وحرمة أرضها وحقّها في الوجود، ولكن إسرائيل دائماً مظلومة وإن قصفت أقصى بقاع الأرض لأنها تدافع عن نفسها دفاعاً مشروعاً؛ وإن أشلاء أبناء فلسطين أو لبنان أهون بكثير من أَرَق عجوز إسرائيلية لم تغمض جفونها خشية اقتحام عربي أعزل حجرة نومها .

وكذلك العدالة التي بهرنا الغرب بها فقدت بريقها بعد أن ظهر للعيان أنها عدالة الكيل بمكيالين، وإلا فأين العدالة في شنّ حرب على العراق بدعوى امتلاكه أسلحة ممنوعة دولياً . وحتى إذا ظهر للقاصي والداني أن هذه دولة أضعف من أن تملك أسلحة الدمار الشامل، فقد قرّر الغرب أنه سيحتل العراق ملك السلاح النووي أو لم يملك .

إن الأمّة المسلمة عزفت عن هذه الشعارات، وراحت تبحث عن ذاتها في تاريخها، وعن هويتها في مرجعيتها، وعن تلك المبادئ الأساسية وغيرها في قرآنها وسنة نبيّها . وظهر لها البون الشاسع بين مبادئ الحضارة الإسلامية الراقية وبين المبادئ المستوردة . فرجعت إلى الإسلام أفراداً ومؤسسات . وليت القادة يسوسون شعوبهم بهذه المرجعية .

وإنّ عزوف الأمّة عن برامج الغرب بما ينطوي عليه من جهود ستبذل من أجل العودة إلى الذات هي التي عبّر عنها البعض بـ"العدو البديل"، لأن الأمّة المسلمة بهذا الاعتبار مشروع حضاري بديل عن حالة الإفلاس التي تضررت منها شعوب الغرب المادي في ذات الآن الذي تضرّرت منها شعوب الأمّة المسلمة.

ولقد لاحظنا بالفعل أنّ الإسلام أصبح ينتشر بوتيرة متسارعة في الغرب، فقد دلّت إحصائيات مصدرها وزارة الداخلية الفرنسية أن عشرة فرنسيين أصليين يعتنقون الإسلام يومياً بفرنسا.

كما دلّت المتابعات الإعلامية أن وتيرة اعتناق الإسلام ازدادت في الغرب بعد حملات تشويه صورة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، وبعد تصريحات بابا الفاتيكان سماحة الأب بينيديكس الرابع عشر؛ بل وبعد القصف الذي تعرّض له السودان، وأفغانستان والصومال إثر أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ وكذا بعد احتلال أفغانستان فالعراق.

ولعل فضول رجل الغرب وحبّ معرفته حقيقة هذا الإسلام الذي استدعى كل هذا التجنيد هو الذي جعله يكتشف سماحة الإسلام فيقبل على اعتناقه.

وإنّ كلاماً كثيراً قد قيل في إعطاء تفسير موضوعي لظاهرة انتشار الإسلام في الغرب. لكنّ كل من تناول الموضوع، فيما نعلم، إنما حصره في قدرة الإسلام على النفاذ إلى قلوب الناس وإلى عقولهم باعتباره دين الفطرة؛ ولكن ما هي القوة المفعّلة له في قلوب الناس وعقولهم؟

من الأكيد أنها لا تكمن لا في علماء المسلمين ولا في ساستهم ولا في جيوشهم ولا في قوّة اقتصادهم؛ وإنما يعود الفضل في ذلك إلى فئة قليلة من ضعفائهم، وعلى العلماء والباحثين أن يجتهدوا في استخلاص خصائصها وسرّ نفوذها.

إنّ هذه القوة المستضعفة هي التي تخيف الناس في الغرب وتثير فيهم الروح العدوانية؛ ولعلّ أكبر شاهد على ذلك ما توعّد به أحد الطامحين في رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية من أنّه إن

مكّنوه من رئاستهم فسوف يضرب الكعبة ومسجد المدينة . . . مع يقينه من أن الإرهاب لم يصدر لا من الكعبة المشرّفة التي كانت في فترات سابقة ضحية له، ولا من مسجد النبي عليه الصلاة والسلام .

فمحاولة الأمة الإسلامية للعودة إلى ذاتها ، وانتشار الإسلام في الغرب يمثلان وجهين للسبب الأول الذي جعل هذا الغرب يشنّ عدوانه على الإسلام، ويستهين بمقدسات الأمة المسلمة . وهو في الحالتين لا يدافع إلاّ عن سبب وجوده الذي غدا منذ أعلن فرنسيس فوكوياما عن نظرية نهاية التاريخ في حالة تأرجح بل تهاوٍ .

لأن بلوغ القمّة لا يعني سوى بداية الهبوط، فتلك قاعدة سننية، لا يكاد يختلف حولها عاقلان، وهي القاعدة المعبر عنها بدورة التاريخ في كتابات المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون .

وإنّ حالة الهلع الحضاري أو الخوف المرضي من الإسلام المصطلح الذي أُطلق عليه اسم "الإسلاموفوبيا" هو الذي يدفع هؤلاء إلى محاربة الإسلام في طريقة هروب معلن إلى الأمام ظنّاً منهم أنهم سيقضون على سبب انهيار حضارتهم بحرب استباقية وقائية أساسها فكري حضاري .

٢- ضعف الأمّة المسلمة:

السبب الثاني الذي جعل الغرب يتجاسر على الأمّة المسلمة، ويشنّ ضدها كل ذلك العدوان هو ضعف هذه الأمّة المسلمة .

وأمّتنا تمرّ اليوم بأزمة التخلف الحضاري على كل المستويات فهي لا تستطيع حماية نفسها إلا بأسلحة الغرب الذي ناصبها هذا العدوان حتى إذا قاطعته فعلاً أصبح سلاح المسلمين خردة بدون قطع غيار . وتكاد ميزانية دولة أوروبية واحدة أن تساوي بل تفوق ميزانية كافة العالم العربي .

أما عن القراءة والإنتاج الفكري فإنّ الأمة المسلمة التي امتلأت رفوف مكتباتها بكتب تفسير الأحلام والرقية من السحر والجانّ وكتب مشاهد القيامة وعذاب القبر لا تكاد تنافس أكثر

دول الغرب تخلفاً؛ وهكذا فإننا لا نجد جامعة إسلامية واحدة في ترتيب أفضل الجامعات في العالم.

وإنّ هذه الأمّة اليوم عالة في غذائها ولباسها على الغرب وجلّ أدوية علاج مرضاها والأدوات الجراحية وأجهزة الأشعة والتحاليل من إنتاج ذات الغرب. وستصبح أدويتنا تراباً بدون مواد خام، ويصبح طعامنا عفناً بدون سماد وبذور ومبيدات الغرب، وستصبح ملابسنا خرقاً بالية بدون ماكينات غزل ونسيج هذا الغرب.

وحتى تدنّين الأمّة المسلمة أصبح شكلياً ومغشوشاً، يعكسه ذلك التهافت في فتاوى الفضائيات المتضاربة، وأولئك الذين يموتون في حالة التدافع الهستيرية وهم يرمون الجمرات على جسر منًى أثناء أداء فريضة الحج التي من المفروض أن تهذب النفس وترقى بالروح، وهم يستنيرون بفتاوى مشايخ لا تكاد تصيب أشعة الشمس بشرتهم الناعمة.

بل أصبحت المجتمعات الإسلامية من أكبر مجتمعات الدنيا فساداً وكذباً، وأكثرها خلوداً إلى الكسل والدعة حتى أصبحت الصين البوذية الكونفوشيسية هي التي تحيك لأبناء الأمة المسلمة سجاجيد صلاتهم وتصنع مسابحهم وبوصلات تحديد قبلتهم وحتى فوانيس عيالهم الرمضانية؛ بل وحتى جلابيبهم التي يدّعي بعضهم ظلماً وزوراً بأنهم يحيون سنة رسول الله ﷺ عندما يقصّون عقبها ليرفعوها إلى حذو ركبهم.

وبعد هذا أقرأ لأحد مفكري الأمّة أن أمّتنا تمرّ اليوم بأزمة التخلف الحضاري مع امتلاكها كل مقومات الحضارة والريادة والصناعة التاريخية للعالم.

لكن هل هذا صحيح؟

أقدّر أنه غير صحيح البتّة فكيف ندّعي المقدرة على معالجة الناس بما لدينا من دين وأخلاق، ونحن في أمسّ الحاجة إلى أن نمارس هذا الدين وأن نتخلّق بأخلاقه.

وأحسب أنّ هذه هي أحسن قراءة لقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (الأنفال:٥٣)، وقوله في سورة الرعد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (الرعد: ١١) .

ذلك أن النعمة الذي يظنّ هذا المفكر وغيره أنها ما زالت في الأمّة إنما زالت عندما تغيّرت الأمّة من حالة السيادة بالقوة إلى حالة التبعية بالقوة والفعل معاً . لأن الأمّة التي تنازلت عن أسباب الريادة لا يمكنها أن تبقى في موقع السيادة بمجرد أنها ترتل القرآن، وتصلي وتصوم؛ وأحسب أن هذا واحد من معاني قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠)، فالخيرية مشروطة بامتثال أوامر الإسلام، والانتهاء عن نواهيه، والتخلق بأخلاقه . إنه توجيه يتضمّن معنى الشرط الذي يكمن جوابه في الاستجابة لذلك الخطاب .

ولذلك قدّرنا عدم القدرة على معالجة الغرب بما لدينا من دين وأخلاق، لأننا في أمسّ الحاجة إلى أن نمارس هذا الدين وأن نتخلّق بأخلاقه .

وكما أنّ الخيرية مشروطة فإنّ الريادة والسيادة أيضا مشروطة، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ (البقرة:١٤٣) [1] . فشرط الشهادة على مرّ الأمم والأزمان هو الوسطية التي حادت عنها الأمّة الإسلامية في عباداتها وسلوكاتها نحو الإفراط والتفريط .

فما أغرب تلك الحركات النشاز عن تعاليم الإسلام التي أصبحت تكفّر المجتمعات المسلمة، وتستبيح دماء أبناء المسلمين، والمستأمنين من غيرهم؛ وتنتهك أعراضهم وتستبيح أموالهم وأرزاقهم .

[1] راجع النظرية في كتاب "شروط النهضة" لمالك بن نبي .

وما أغرب شأن أولئك الذين اختزلوا الإسلام في طقوس ورسوم مفرغة من روح الإسلام وروحانيته في حين ناصبوا أصالة الأمة الروحية العداء، وحاربوا رموزها التي سادت بها، وقادت لها أمم الأرض.

ناهيكم عن أولئك الذين ناصبوا أوطانهم العداء، واعتبروا حبّ الوطن وتقديس رموزه ضرباً من ضروب الشرك بالله تعالى، ثم لم يجدوا حرجاً في التآمر مع أعدائه باسم أممية الإسلام التي اتخذ أنصارها من أرض الغرب الذي يدّعون مقارعته ملجأً لهم، وملاذاً ضد بني جلدتهم، بل وتجنّسوا بجنسيات الغرب مع ما يحمله هذا التجنّس من معاني الولاء والبراء.

وما أشنع صنيع أولئك الذين أحيوا ضغائن وإحناً من مقابر التاريخ الغابر، وجعلوا الأحقاد والانتقام سلوكاً، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الاعتقاد بأن إزهاق روح المسلم الذي يخالفهم في المذهب وسفك دمه قربة من القرب التي يستحقون بها جنّة النعيم.

وأنّى لأمّة هذا شأنها أن تدّعي أنها أمّة الشهادة أو الريادة ما لم تغيّر قبل ذلك شأنها كلّه حتى تستفيد من نواميس الكون، والصيرورة التاريخية.

إنّ هذا الشأن هو الذي أغرى العدو بنا، فاستخفّ بنا وبمقدساتنا، وتجرّأ على قرآننا ونبيّنا وأساء إليهما، وأهاننا جميعاً، لأنه وجد فينا الاستعداد والقابلية للإهانة. وقد هيّأنا بأيدينا أسباب الذلّ والهوان لأنفسنا. كما قال القائل:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

ثالثا: شروط صدّ العدوان:

أحسب أن المقدمات المعروضة بين أيديكم تسمح بأن نتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّ الإهانة ليست موجهة للإسلام في حدّ ذاته... فقد شهد على ذلك حكام الدول العظمى التي تفرض

سيطرتها بقوة السلاح على المسلمين، وتحكمهم بواسطة مندوبين عنها، تعوضهم متى تشاء. فما زال هؤلاء الحكام يشيدون بعظمة الدين الإسلامي وإنسانيته. وإنما الإهانة موجهة للمسلمين الذين استعدّوا لها بما توصلوا إليه عبر قرون من الهوان والخنوع والتقهقر.

ولعل أهمّ أسباب الهوان هذا هو ما وصفه مالك بن نبي رحمه الله بالقابلية للاستعمار... فالاستعمار في مفهوم ابن نبي التاريخي والاجتماعي ظاهرة حتمية لم يكن في الإمكان أن لا تقع... ومتى وقعت وسجّلت في التاريخ فمن غير الممكن أن تزول إلا إذا توفرت أسباب زوالها[1].

ولا أظنّ أن صدّ العدوان في عالم اليوم يكمن في منع الآخر من الكلام؛ فإن هذا عصر لا يمكن أن نطلب فيه من أحد أن يسكت، وإنما علينا أن نعرض ما لدينا من سماحة في الإسلام، وأن نتخذ الأساليب الشرعية والحضارية في بثّ الرؤية الإسلامية.

ولا أظنّ أن محاولة الظهور بمظهر الآخر ستصدّ عنّا العدوان أيضا، بل إنها لن تزيد المعتدي إلا هيمنة وازدراءً للأمّة. وإن الشعور بالاستقلال، ووحدة الكيان هو الذي يفرض على الآخر النظر إلينا من حيث نحن كذلك.

فينبغي البدء بتصحيح الفكر الديني السائد في العالم الإسلامي إذن مروراً بإصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية في أقطاره.

ولكن هذا الإصلاح يجب أن يمرّ عبر الخطوات المنهجية التالية:

١- **تحديد عوامل الضعف:** التي يجب التخلّص منها لنتمكن من الوقوف إلى جانب الآخر في صفّ واحد والتبادل معه في مستوى واحد، وعلى رأس عوامل الضعف التي يجب التخلّص منها عامل الجهل والأمية.

[1] راجع النظرية في كتاب "شروط النهضة" لمالك بن نبي.

ولا ريب أنّ الأمّة التي ولدت من رحم قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١) هي أمّة يمكن أن تبعث من سباتها عندما تقضي على الجهل وتمحو الأميّة، وترقي التعليم، وتدفع نحو البحث العلمي الهادف الرصين.

٢- الاعتراف بأهمية العقل في فهم الدين، وتفسير نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المشرّفة: وهو شرط يستلزم التخلّص من التناقض المحتوم علينا في كل مناحي حياتنا الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

ذلك التناقض الذي يفصم شخصية المتديّن ويجعله يعيش حياة ذات بعدين غير متناغمين، وهو انفصام يعيق المجتمع عن الحركة الهادفة، فلا يكون للأمّة من مظاهر تدينها سوى شعائر وطقوس تعبدية، أما باقي السلوكات فلا منهج لها فيه سوى الحفاظ على المكاسب، وضمان لقمة العيش مهما كان التصرّف هجيناً، ومهما كان نشازاً عن أوامر الإسلام ونواهيه.

٣- الاعتراف الصريح والعملي بكرامة المواطن وحريته: فقوّة الأمّة المسلمة كامن في هذه الجموع من المستضعفين وليس في زعمائها لا السياسيين منهم ولا الدينيين.

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد ظنّ أن له فضلاً على غيره من مستضعفي الأمّة فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول اللّه الرجل يكون حامية القوم أيكون سهمه وسهم غيره سواء؟ قال: "ثكلتك أمك ابن أم سعد وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم"[١].

وفي رواية البخاري أنّ سعداً رأى له فضلاً على من دونه فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: "هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم"[٢].

[١] أخرجه أحمد في مسند سعد بن أبي وقاص.

[٢] أخرجه البخاري في باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: "ابغوني ضعفاءكم فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم"[1] .

ومعنى قوله: "ابغوني ضعفاءكم" أي اطلبوا لي، وتقربوا إليَّ بالتقرب إليهم وتفقد حالهم وحفظ حقوقهم والإحسان إليهم قولاً وفعلاً واستنصاراً .

ولو اكتفينا بتوجيه هذا الحديث لكفانا لنخرج من حالة التبعية والهوان إلى حالة العزة والكرامة، فضعفاؤنا الذين يحسب لهم الغرب ألف حساب أصبحت الأمة الإسلامية تغمطهم حقوقهم، وتذلّ رقابهم في حين أمرنا الإسلام أن نشيع العدل فيهم ونبسط عليهم مشاعر الإحسان . ولو أننا اعترفنا عملياً بكرامة المواطن الضعيف وحريته، لكان سبباً في عزتنا ونصرتنا .

وقد أكّد رسول الله ﷺ هذا المعنى في مثل قوله : "المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمَّتهم أدناهم ويُجيرُ عليهم أقصاهم وهم يدٌ على مَنْ سواهم يَرُدُّ مُشدُّهُمْ على مُضْعفهمْ ومُتسرّعهم على قاعدهم لا يُقْتل مؤمنٌ بكافر ولا ذو عهدٍ في عهده"[2] .

وإنما تساوى المشدّ وهو القوي والمضعف وهو الضعيف، وتساوى المتسرّي وهو الذي يخرج مع السرية والقاعد الذي لا يخرج لأنّ المتسري إنما تسرّى بقوة القاعد ، فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين كما قرّر ذلك العلماء .

٤- **التخلص من الاستبداد:** فهو علامة على ضعف المستبد لأن قوته وقهره لا يقومان على قوة عقلية ولا أخلاقية دائمة، وإنما يقومان على الظلم الذي يتنافى مع الدوام والخلود .

[1] أخرجه أحمد في باقي حديث أبي الدرداء؛ وأبو داود في باب الانتصار برذل الخيل والضعفة؛ والنسائي في باب الاستنصار بالضعيف؛ والترمذي في باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين وصححه .

[2] أخرجه أحمد في مسند علي بن أبي طالب؛ وأبو داود في باب السرية تَرُدُّ على أهل العسكر؛ والنسائي في باب القوَد بين الأحرار والمماليك في النفس؛ وابن ماجه في باب المسلمون تتكافأ دماؤهم .

والحقيقة أنّ القوة القائمة على الكِبر والاستبداد هي ضعف في ذاتها، وهي آيلة إلى الأفول بأفول المستبد، وأن القوة القائمة على الحق وحدها هي القوة التي لا تزول بزوال الرجال.

وإن الاستبداد يدفع إلى التململ، والتمزق، والاختلاف، والتنازع المؤدي إلى الفشل. ذلك أن جزءاً كبيراً مما أصاب الأمة ويصيبها من الفتن والنكبات إنما هو بسبب ما جرى في الأمة من التنازع والفرقة.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها)[1].

٥- العمل على تطبيق النهج الإسلامي في الإصلاح: وقد أحسن الدكتور كمال أبو المجد مناقشة هذا الشرط في بعض مقالاته المتميّزة؛ ونودّ أن نضيف أن القائم بهذا الإصلاح ليس الأفراد وإنما هي المؤسسات، أعني المدرسة والمسجد والإدارة والمحكمة والأمن بما في ذلك التنظيم الزجري في السجون.

ذلك أن صدّ العدوان عن الأمّة أمر يفوق جهود الأشخاص ويتجاوز طاقات الأفراد مهما كانت ألمعية عقولهم ورسوخ علومهم، وعلو شأوهم في السياسة والاقتصاد.

وقد كان العلماء إذا وردت عليهم مسألة شائكة من مسائل العلم هي أدنى من مسألتنا بكثير يقولون: "هذه مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر".

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣/٤٢١.

خاتمــة:

مهما قيل عمّا أصاب الأمّة المسلمة من العدوان بسبب حالة الهوان التي آلت إليها، فإنها مرحلة أخرى من مراحل المغالبة الحضارية التي تجمع بين الإسلام وغيره. وهي صورة حديثة لما حصل من صور الاستهزاء بالقرآن وبرسول الهداية منذ أوحي إلى سيد الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وليس بغائب عن أذهاننا مشهد العدوان الذي خلّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ** ﴾ (فصلت:٢٦). أي اجعلوه لغواً وباطلاً، واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم[١].

فقد روت كتب التفسير والسيرة النبوية العطرة أن المشركين بالإضافة إلى إثارة الشبهات كانوا يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق ممكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلي ويتلو القرآن.

حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضاً عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث، قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، وكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟[٢].

[١] السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٣/١.

[٢] الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري: ٦٤/١.

ولم تسجّل كتب السيرة النبوية الشريفة أن رسول الله ﷺ جابه هؤلاء أو قاتلهم، أو كمّم أفواههم، بل كان نهجه واضحاً في الاستمرارية، والسعي قدما نحو البناء والتأسيس؛ وإنّ إصراره وعدم مجابهة المشركين هو الذي جعلهم يتسللون إلى مجالسه لسماع القرآن الكريم الذي أَمَرُوا هم ذاتُهم بعدم سماعه؛ وإنه كان يعتمد على فنيات التبليغ الذكي دون أن يأبه لتشويشهم وتعتيمهم ولأجل ذلك كان لا يجهر بقراءة القرآن جهرا يلفت انتباههم فيشوشوا عليه، ولا يخافت بها فلا يُسمِع منهم أحدًا، بل كان يبتغي بين ذلك سبيلا.

جاء في الروض الأنف: (فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقا منهم فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع؛ وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه) [1].

ولم أقرأ ما يفيد أن ثمرة هذه المعاملة المبنية على الرحمة والرأفة وحبّ الخير للآخر هي التي جعلت أعداء الإسلام يدخلون بعد ذلك في دين الله أفواجاً، ولا هي التي جعلت قلوبهم المليئة بالحقد والبغضاء تتحول إلى قلوب مفعمة بالحب ودافعة للولاء.

غير أن السياق القرآني يفيد هذا المعنى فقد جاء في أعقاب آية "فُصِّلَت" هذه قوله تعالى في الآية الثالثة والرابعة والثلاثين: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٣-٣٤).

إنها مغالبة العدوان بعواطف المحبة والودّ المستندة إلى وضوح في الرؤية، وسلامة في المنهج، والمعتمدة على البناء الهادف الذي يحيل كلام الله تعالى أفعالا، وتوجيهاته إنجازاً، ويصنع من الضعف قوة.

[1] الروض الأنف لأبي القاسم السهيلي: ٢/٧٩-٨٠.

إن هذه المحاولة التي بين أيديكم تقترح في نظري حلا لأزمة الأمّة المسلمة، وتدعو القوى الفاعلة في الأمّة إلى ردّ العدوان عنها، متحلية بعواطف الحبّ الصادقة، ومفعمة بمشاعر الشفقة الدافقة، مسترشدة بنور العقل، ومهتدية بهدي الوحي، باذلة الجهد الجهيد في توفير شرائط النهضة الشاملة.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ (فصلت:٣٥).